الدلائل و الشواهد المادية على الحضور الإسلامي بمدينة مرسيليا بين (القرن 13م ~ و القرن 15م)

CLUES AND MATERIAL EVIDENCE ABOUT THE ISLAMIC PRESENCE IN THE CITY OF MARSEILLEBETWEEN THE (13 AND - 15TH CENTURY)

الطالب: محمد الحبيب هشماوي St. Med Lhabibe HACHMAOUI

جامعة أحمد بن بلة، وهران1 Univ. Ahmed B. Bella, ORAN1

hachemaoui_habib@yahoo.fr

الأستاذ الدكتور: دحو فغرور Pr. Daho FAGHROUR

جامعة أحمد بن بلة، وهران1 Univ. Ahmed B. Bella, ORAN1

dahofaghrour@hotmail.com

Received*:** استلم: ***Accepted: قُبل للنشر:

ملخص:

يستند مقالنا إلى دراسات حديثة وحفريات نفذتها الفرق في مدينة مرسيليا الفرنسية في مجموعة من المواقع في أحياء المدينة وفي البحر، بالإضافة إلى بعض الوثائق الأرشيفية لمجلس البلدي لمدينة مرسيليا حول الوجود الإسلامي الموريكسي بين القرن الثالث عشر والخامس عشر. ويعد ميناؤها أكبر ميناء فرنسي على ساحل البحر الأبيض المتوسط الذي لم تنقطع تجارته خلال العصور الوسطى مع العالم الإسلامي بشكل عام. مع وجود مصادر أرشيفية في المجلس البلدي لهذه

المدينة الفرنسية، وما تم اكتشافه من آثار إسلامية تعود إلى تلك الفترة في أحياء المدينة القديمة وفي أعماق سواحلها غير بعيدا عن شواطئها كحطام السفن وبقايا البضائع والأدوات الخزفية تجعل البحث في الموضوع مفتوحًا.

الكلمات المفتاحية: مرسيليا؛ العالم الاسلامي؛ المورسكيون؛ العلاقات التجارية؛ الدلائل والشواهد المادية.

Abstract :

My article is based on recent studies and excavations carried out by the teams in the French city of Marseilles on a range of sites in the city's neighborhoods and at sea, as well as some documentary records of the Marseilles city council on the Morissian Islamic presence between the 13th 15 centuries. Marseille is the largest French seaport on the Mediterranean coastbut its trade during the Middle Ages with the Muslim world in general. a field of research that has to undertake. with the existence of archival sources in the municipal council the city from that era, as well as what was discovered from the effects of Islamic dating back to that period in the depths of the Mediterranean Sea not far from the shore ; the remains of ships and the remainder of the goods ,and the remains of ceramic goods and tools. Make the topic search open.

Keywords : *Marseille; Islamic Presence; Civilizational Relations; Islamic Maghreb; Islamic World.*

مقدمة:

تميزت القرون الأولى من العصور الوسطى بحضور عسكري إسلامي ملحوظ في البحر الأبيض المتوسط، تدل عليه الغارات المتعاقبة على سواحل "بروفانس" (جنوب فرنسا)، وعلى العكس من ذلك، فإن المرحلة المتأخرة من العصور الوسطى عرفت ازدهارا للمبادلات بين الدول الإسلامية وأوروبا المسيحية ، خاصة منها المبادلات التجارية؛ كما لا يفوتنا التنبيه أن هده المرحلة التاريخية تخللها أحيانا فترات من العنف و المجابهة العسكرية.

غير أن موضوع الدراسة التي نحن بصدد اعددها والخاص بالعلاقات المتعددة أوجه بين جنوب فرنسا والعالم الإسلامي وغربه بالخصوص تحاول الخوض في الحضارية منها وفيما يخص مدينة مرسيليا أكبر ميناء فرنسي مطل على البحر الأبيض المتوسط، فإن دورها كان ثانويا في التجارة بين أوروبا والعالم الإسلامي نظرا لهيمنة المدن الإيطالية على التجارة بين أوروبا والعالم الإسلامي، خاصة مدينة "جنوة" ثم تليها مدينة "برشلونة " الإسبانية (التابعة آنذاك لمملكة "أراغونة") ثم مدينة "فلنسيا" الإسبانية أيضا وأخيرا جزيرة "مايوركا" الإسبانية التي كانت محورا رئيسيا للمبادلات التجارية مع شمال إفريقيا وذلك بحكم موقعها المتميز في قلب الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

العلاقات التجارية والاتصال بين العالم الإسلامي ومدينة مرسيليا:

رغم ذلك لا يمكننا أن ننفي وجود علاقات متعددة الأوجه وعلى نسق متصل ومنتظم، بين ميناء "مرسيليا" والبلاد الإسلامية خاصة مع شمال إفريقيا كما تدل على ذلك العقود التجارية الرسمية التي جمعها الكونت لويس دوماس لاتري (Le comte Louis de Mas-Latrie)[1]، إضافة إلى البحوث التاريخية حول الموضوع التي أنجزها كل من :Régine Pernaudو Edouard Baratier و Felix Reynaud الذين تخصصوا في التاريخ التجاري لمدينة "مرسيليا"، مما دفع بالمؤرخ :Juliany[2] إلى القول بأن ازدهار النشاط البحري لمدينة مرسيليا في العصر الحديث الذي جاء بعد توسع الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية، ما هو إلا امتداد للنشاط البحري لهذه المدينة في العصور الوسطى.

(1) De Mas-Latrie,L.,Traité de paix et de commerce et documents divers, preface, p.X, tome 1
(2) Juliany J.,Essaie sur le commerce de Marseille,p. 125.

إضافة إلى ذلك فقد قام عالم الآثار جان بيار جونشي (Jean Pierre Joncheray)بدراسة حطام سفن وجد في عرض سواحل مرسيليا (موقع:Plane3) وما وجد بها من أثاث متمثل في الفخاريات، أثبتت الخبرة والتحاليل المختصة التي أجريت عليها أن منشأها يعود إلى المغرب الإسلامي والأندلس معا والدليل على ذلك الرسومات التي كانت شائعة في ورشات الفخار في تلك البلاد والتي لم يكن يتقنها سوى حرفيي تلك البلاد. يؤكد هذا الباحث أنها سفن تجارية من البلاد الإسلامية والدليل على ذلك عملية تأريخ زمن صناعتها مخبريا[1].

وتجدر الإشارة إلى أنه تم العثور على قبور في مدينة "نيم" (Nimes) القريبة من مرسيليا، تشهد على أن من حوتهم من موتى قد دفنوا وفق شعائر الدفن الإسلامية وأثبتت التحاليل الجينية أنها من أصول مشتركة إيبيرية وشمال إفريقية تعود إلى الفترة الزمنية الممتدة بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين. لفت انتباه فريق البحث عدم وجود أي آثار لجروح أو كسور على هياكلها مما يوحي بأن أصحابها قد ماتوا ميتة طبيعية مما يجعلنا نستنتج أنهم لم يكونوا جنودا أو محاربين[2].

إن الهدف من هذا البحث هو محاولة تتبع الأدلة التي تثبت أنه كان للتجار المسلمين في مدينة "مرسيليا" تواجد فعلي، مع السعي في نفس الوقت للإحاطة بكثافة ذلك التواجد ومناقشة الظروف التي تحكمت في ازدهاره أحيانا أو تقلصه أحيانا أخرى .

مكانة مدينة مرسيليا في البحر الأبيض المتوسط مقارنة مع المدن الإيطالية والإسبانية:

قبل الخوض في تفاصيل الموضوع تجدر الإشارة إلى أن مدينة مرسيليا لم ترتقي إلى مصاف القوة التجارية للمدن الإيطالية مما يمكن تعليله من خلال ما أورده إيدوار باراتيي (Edouar Baratier) بأن مدينة مرسيليا تحملت تبعات سياسات مفروضة عليها من خارج نطاقها الجغرافي تمثلت في سطوة الأسرة الأنجفية (Les Angevins) حكام مدينة

(1) Joncheray J.-P,Senac Ph.(1995) ,« Une nouvelle épave sarrasine du haut moyen-âge » Archéologie islamique , 5, p.25-34.
(2) Gleize Yves,(1992),Trois inhumations Musulmanes du haut moyen-âge à Nîmes,analyse pluridisciplinaires archéo-anthropologiques ,1992,p79-87.

نابولي جنوب إيطاليا، هذا ما انعكس سلبا على عائدات المدينة التجارية وأيضا نوعية الهياكل المنظمة لها، وهو أمر امتد تأثيره على كامل مملكة فرنسا[1].

و على العموم فإن حجم الحضور التجاري لمدينة مرسيليا كان يحدده أساسا القوة السياسية لهذه الأخيرة، هذه القوة التي كانت تتحكم فيها صيرورة الأحداث في حوض البحر الأبيض المتوسط .

خلال القرن الثالث عشر الميلادي شهدت المبادلات التجارية بين مرسيليا والمشرق والمغرب الإسلاميين توسعا ملحوظا يدل عليه تواجد تجار من مرسيليا في الموانئ الإسلامية في سبتة وبجاية وتونس والجزائر العاصمة ووهران وحتى مدينة تلمسان (رغم عدم كونها مدينة ساحلية)، واتسم حضورهم في الموانئ الثلاثة الأولى بنوع من الديمومة على عكس الموانئ والمدن الأخرى، التي كان تواجدهم بها ظرفيا، والدليل على ذلك العقود التي أبرمها الموثقون من عائلة (Manduel) والأرشيف الذي خلفه الموثق (Almaric) في عام1248حيث قام بتحرير 1031 عقدا، كتب في هوامشها ملاحظات ذكر فيها أسماء السفن ووجهتها كميناء سبتة وبجاية وفلنسيا ومايوركا ...الخ، كدليل آخر على وجود نشاط تجاري معتبر بين ميناء مرسيليا والعالم الإسلامي.

ويجب الالتفات إلى أن ورود موانئ المغرب الإسلامي في سجلات الموثق (ايتيان موندويال) كوهران، بجاية، سبتة أكثر من موانئ المشرق الإسلامي. وبدرجة أقل موانئ جزيرة صقلية[2].

تنظيم المعاملات التجارية في ميناء مرسيليا:

خلال هذه الفترة عرفت المنظومة التشريعية للمدينة تطورا ملحوظا تمثل في تعديه مجرد تنظيم العمليات التجارية البحتة إلى تنظيم تواجد تجار مرسيليا بالموانئ التجارية الإسلامية، وذلك على غرار المنظومات القانونية التي وضعتها المدن الإيطالية.

(1) Baratier E.(1959) « Influence de la politique angevine sur le déclin commercial de Marseille,aux XIIIe et XIVe siècles » ;p.679-693.

(2) Blancard L.(dir.)(1884-1885),Documents inédits sur le commerce de Marseille au moyen âge.p20.

تجسد ذلك في تعيين قناصلة بالموانئ الإسلامية مهمتهم رعاية مصالح تجار مرسيليا وتسيير علاقات مدينتهم مع الحكام المسلمين كما أنهم أسسوا في كل الموانئ الإسلامية ابتداء من مدينة سبتة ومرورا ببجاية وتونس حتى الإسكندرية، فنادق لإيواء التجار المرسليين وفي فترات الكساد التجاري أو انعدام مجيء التجار مرسيليا نظرا لظروف مختلفة إلى الموانئ المذكورة آنفا، فإن تسيير تلك الفنادق كان يوكل به إلى تجار أو مؤسسات تجارية من فلورنسا الإيطالية بحكم قوتهم المالية التي مكنتهم من الحضور الدائم في الموانئ الإسلامية طيلة القرون الوسطى[1].

وجود التجار من مدينة مرسيليا بالموانئ الإسلامية:

تجدر الملاحظة إلى أن ميناء عكا بالساحل الفلسطيني التي كانت تحت الحكم الصليبي إلى غاية 1291م، كانت الوجهة الأولى لتجار مرسيليا ويرجع ازدهار تجارة مرسيليا مع المشرق الإسلامي على حساب المغرب الإسلامي إلى التحريم البابوي للتجارة مع غير الممالك اللاتينية (الصليبية) في المشرق الإسلامي؛ لكن مع انحسار تلك الممالك الصليبية في المشرق حدث العكس وأصبح المغرب الإسلامي الوجهة الأولى لتجار مرسيليا وأصبحت أقصى وجهة لهم في المشرق هي جزيرتي رودس وقبرص[2]. ومع انتصاف القرن الرابع عشر الميلادي وانتهاء الحروب الصليبية، صدر قرار بابوي يجيز التجارة مع غير الممالك اللاتينية (الصليبية) في المشرق الإسلامي.

يلاحظ أيضا تناقص في تواجد تجار مرسيليا بالموانئ الإسلامية بين سنوات (1315م – 1330م)أين أضحت الأسواق في مدن المغرب الإسلامي مهجورة من تجار جنوب أوروبا ولعل السبب في ذلك وباء الطاعون الذي ضرب أوروبا في تلك الفترة وأيضا إلى تفاقم أزمات الأسرى المسيحيين في بلاد المغرب الإسلامي[3].

---

(1) Valérian D.,« Le recours à l'écrit dans les pratiques marchandes en contexte interculturel: Les contrats de commerce entre chrétiens et musulmans en méditerranée » ,p59-72

(2) Baratier E. et Raynaud F., Histoire du commerce de Marseille, tome 2 :de 1291 à 1480, p.208-209

(3) Malausséna P.-L.(1968), « Promissio redemptionis : le rachat des captifs chrétiensen pays Musulmans à la fin du XIV e siècle » ,p255-281.

ومع بداية القرن الخامس عشر الميلادي عاد الإنعاش للتجارة بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط وعاد التجار الأوروبيون إلى الأسواق الإسلامية في المدن الساحلية لشمال إفريقيا والمشرق العربي ويعزى السبب في ذلك إلى تنامي القوة العسكرية لإسبانيا والبرتغال والقوة المالية والاقتصادية لجمهوريات المدن الإيطالية. حيث عرفت هذه الفترة نوعا من انحسار العنف في العلاقات بين العالم الإسلامي وأوروبا بعد نهاية الحروب الصليبية وأيضا بدايات الانفصام بين الكنيسة البابوية وممالك أوروبا أين أصبحت المصلحة السياسية والاقتصادية هي التي تطغى على القرار الأوروبي بدل القرارات الكنسية كما كان الحال في الفترة السابقة.

بعد هذه الإطلالة السريعة على حالة العلاقات بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط يمكننا أن نلاحظ أن اتجاه المبادلات التجارية كان يسير على العموم في اتجاه، حيث نجد الأوروبيين في تلك الفترة أكثر اهتماما بتواجدهم في الأسواق والموانئ الإسلامية من أقرانهم المسلمين الذين قلما نجد لهم ذكرا في الوثائق التجارية وبالتحديد النزر القليل من التي وصلت إلينا من تلك الحقبة، لهذا يجدر بنا أن نتساءل عن الحجم الحقيقي للتجار المسلمين في أسواق المدن الساحلية لأوروبا وخاصة منها ميناء مدينة مرسيليا التي هي موضوع هذا البحث، فيا ترى هل كان تواجد التجار المسلمين في مرسيليا بنفس الحجم الذي كان عليه تواجد تجار مرسيليا في الموانئ والأسواق الإسلامية؟

المصادر والمواثيق والعقود المؤرخة لهذه الحقبة والنشاط التجاري بين الضفتين:

إن أول عقبة نصطدم بها عند محاولتنا البحث عن هذا السؤال هي قلة المصادر المتعلقة بهذه المسألة. من المعروف أن غياب ثقافة الأرشيفية والحفاظ على الوثائق في العالم الإسلامي في تلك الحقبة تعتبر السبب الرئيسي في قلة المصادر، أضف إلى ذلك أن التجار كانوا يمحون ما بحوزتهم من عقود واتفاقيات ليعيدوا كتابة عقود أخرى على نفس الرق أو الكاغد نظرا لقلة الورق وغلاء ثمنه، ثم إن كثرة الحل والترحال التي تميز التجار بصفة عامة تجعلهم يقتصدون في الحفاظ على ما بحوزتهم من مقتنيات لا يرجى جني الأرباح من المحافظة عليها ومن هذه المقتنيات طبعا العقود والوثائق.

لحسن حظ البحث العلمي فإن الأعمال التي قام بها رجل الدين المسيحي "برجاس"(Bargès)نهاية القرن التاسع عشر حول نقوش حجرية بالخط العربي وجدت بجنوب فرنسا[1]، بالإضافة إلى الأعمال التنقيبية التي قامت بها الباحثة

(1) Bargès J.J.L. Inscriptions arabes qui se voyaient autrefois dans la ville de Marseille.p.125-126

"كاترين ريجاد"(Catherine Rigeade)حول عدد من المدافن في جنوب فرنسا والتي أثبتت أنها تعود لموتى مسلمين من غير الأعراق الأوروبية وتعود فترة دفنهم إلى نفس الفترة الزمنية التي نحن بصدد دراستها هذا المقال، تأتي بعد ذلك البحوث التي قام بها "دومينيك فاليريان"(Valérian D.) التي تعرض فيها لدراسة العقود التجارية بين المسيحيين والمسلمين في حوض البحر الأبيض المتوسط[1].

إن التمعن في كل تلك الأبحاث بالإضافة إلى أبحاث أخرى سنذكرها حين اللزوم، تؤكد على أنه كان هناك وجود للتجار المسلمين في جنوب فرنسا والدليل الأكبر على ذلك هو مجموعة النظم والقوانين التي نصت على تنظيم وجود التجار المسلمين في مدينة مرسيليا، مما لا يمكن أن نعتبره مجرد تشريع المقصود به الاحتياط والتهيؤ لحالة مفترضة. لأنه من المعروف أن كل تشريع يأتي للاستجابة لإلحاحات الواقع، وأن وجود تجار المسلمين في مدينة مرسيليا كان وجودا فعليا ولا يبقى سوى تقدير حجم هذا الوجود.

أول هذه النصوص القانونية هو المعاهدة التجارية الثلاثية الأطراف، التي أبرمها ملك فرنسا مع الحفصيين حكام تونس في عام 1270م من جهة، ومع الملك شارل الأول ملك نابولي وصقلية الذي من جهة أخرى والذي كان إقليم "بروفانس"من ضمن ممتلكاته، ومما ورد فيها "أنه يسمح للتجار من رعايا الملك الحفصي أن يدخلوا إلى الموانئ التابعة لكل من ملك فرنسا وملك نابولي وصقلية وأنهم سيكونون تحت الرعاية الإلهية ولن يتعرض أحد منهم للإهانة ولن تسلب منهم أموالهم وبضائعهم وسيكون لهم الأمن والأمان أثناء رحلتهم ذهابا وإيابا ولن يتعرض أحد لسفنهم وفي حالة تعرضهم لأي اعتداء فسيتم تعويضهم...". كما أكد أحد بنود تلك المعاهدة ضمان استرجاع أصحاب السفن لكل ما كانت تحتويه من بضائع وسلع في حالة غرقها أو جنوحها على السواحل التابعة لملك فرنسا وملك نابولي وصقلية[2].

(1) Valérian D.,« Le recours à l'écrit dans les pratiques marchandes en contexte interculturel : Les contrats de commerce entre chrétiens et musulmans en méditerranée » ,p.59-72

(2) Sylvestre de Sacy A.I. ,«Mémoire sur le traité fait entre le roi de Tunis et Philippe le Hardi en 1270,pour l'évacuation des territoires de Tunis par l'armée des croisés », p.448-477.

ثم يأتي بعدها الاتفاق المبرم بين أسقف مدينة مرسيليا ومجلسها البلدي عام 1290م والذي نص على السماح لليهود والمسلمين بالقدوم إلى ميناء وأسواق مدينة مرسيليا والمتاجرة بها ومغادرتها بكل أمان[1].

وأخيرا نصت رسالة ملك "بروفانس" روني الأول الطيب(1409م-1480م) التي أذن بموجبها بالتجارة في مدينة بروفانس لكل الأجانب دون تمييز أو استثناء برا وبحرا شريطة أن لا يدخل هؤلاء التجار المدينة بأسلحتهم وأن لم يسبق لهم التورط في أعمال قرصنة ضد سفن مدينة مرسيليا وغيرها من المدن التابعة لمملكته ويخص بالذكر في رسالته هذه، تجار كل من مدينتي تونس وبجاية[2].

لقد سبقت الإشارة إلى النصوص القانونية التي سنتها مدينة مرسيليا ومجلسها البلدي لتنظيم حركة التجارة داخل المدينة ومع التجار الأجانب والتي يمكن مقارنتها مع النصوص التي كان معمولا بها في المدن الإيطالية مثل "جنوة" و "بيزا"، ومع نضيراتها في إقليم كاتالونيا الإسباني التي تضمنتها وثيقة إسبانية معروفة بكتاب قنصلية البحر " Le livre du consulat de mer ".

هذه النصوص القانونية التي كان معمولا بها في مدينة مرسيليا كانت مدونة في ما كان يسمى بالقوانين الأساسية لمرسيليا"Statuts de Marseille" التي أولت اهتماما خاصا بالإجراءات والتدابير المتعلقة بتجار مرسيليا خاصة في مواني مدن شمال إفريقيا وكذلك تنظيم وجود التجار الأجانب بمدينة مرسيليا[3].

لقد تضمن ذلك القانون الأساسي لمدينة مرسيليا تشريعا ورد تحت عنوان: "ضرائب المسلمين"(De dacita saracenorum) ويؤكد أن الضريبة المفروضة على المسلمين قدرها عشر المال وهي بنفس قيمة الضريبة المفروضة على التجار المسيحيين القادمين من المشرق العربي وأن هذه الضريبة لا تعني أولائك الوافدين إلى المدينة كأسرى أو عبيد وتعني فقط الوافدين اليها للتجارة (Ordinamus et confirmamus dacitam decem que consuevit accipi de saracenis et nazeranis vinientibus Massilie)[4].

(1) Depping G.B.(1830),Histoire du commerce entre le levant et l'Europe depuis les croisades jusqu'à la fondation des colonies de l'Amérique ,t 1,p286.
(2) -Archives municipales de Marseille,cote : AA 149(9/4/1472).
(3) -Archives municipales de Marseille,cote : AA 149(9/4/1472).
(4) -Mery L.,Guindon F.(dir.)(1941),Histoire analytique et chronologiques des actes et des délibérations du corps et du conseil de le municipalité de Marseille,t 1,p.334.

هذا الكم المعتبر من التشريعات التي تقنن حركة التجار المسلمين في مدينة مرسيليا لا بد و أن يكون دليلا على انه كان للتجار المسلمين تواجدا في ميناء وأسواق المدينة، إلا أنه للأسف كل ما بحوزتنا من وثائق وأدلة هي ليست من القوة، نظرا لقلتها، لكي تساعدنا على معرفة الحجم الحقيقي لهذا الوجود.

يمكننا أن نورد وثيقة أوردها المؤرخ (Blancard L.) "بلونكار" مذكور فيها اسم تاجر من الاسكندرية اسمه حكيم، وهي عبارة عن عقد تجاري بين المسمى حكيم وبين تاجر من مرسيليا اسمه "بارنارد موندييال"(Bernard Manduel) صاغه الموثق "جانييار"(Januaire)عام 1227م، لكن ماعدا هذه المعلومات، يبقى ما جاء في هذا العقد غير واضح بما في ذلك موضوع الصفقة وما هي السلعة موضوع هذه الصفقة. هذه الوثيقة تثبت إثباتا قاطعا وجود هذا التاجر العربي الاسم في مدينة مرسيليا خلال القرن الثالث عشر وتجدر الإشارة إلى عدم العثور على أي وثيقة متعلقة بتواجد تاجر أو تجار من شمال إفريقيا بمدينة مرسيليا، عدا التي تمت الإشارة إليها [1].

استنتاجات حول التشريع والقوانين المنظمة لدخول التجار المسلمين للمدينة:

هذا التناقض بين سعة الوعاء التشريعي الذي قنن تواجد التجار المسلمين بمدينة مرسيليا وبين قلة الوثائق التي بإمكانها أن تعطينا نظرة عن حجم ذلك التواجد يرجع إلى عدة أسباب :

أولا: بحكم وقوع إقليم بروفانس تحت سلطة ملوك صقلية إبان تلك الحقبة، فمن الممكن أن يكون مكان تجميع الوثائق الرسمية خارج الإقليم بما في ذلك الوثائق المتعلقة بمدينة مرسيليا وبالخصوص الوثائق ذات العلاقة بالتجارة لما لها من صلة بالضرائب والغرامات التي تكون غالبا موضع تمحيص ومعاينة من طرف السلطات المركزية .

ثانيا: من المعروف أن الكاتالونيون حين احتلوا مدينة مرسيليا عام 1425م في عهد الملك ألفونس الخامس، قاموا بحرق وتدمير كل وثائق أرشيف بلديتها مما يعني أنه تم محو الذاكرة الرسمية لهذه المدينة إلى الأبد[2].

ثالثا: الغياب التام لثقافة الأرشيف عند المسلمين في تلك الفترة أدى إلى عدم الاحتفاظ كلية بالوثائق التجارية من عقود وغيرها مما يجعلنا لا نعول تماما على المصادر العربية في التأريخ للتجارة بين مرسيليا والعالم الإسلامي.

---

(1) -Blancard L.(dir.)(1884-1885),Documents inédits sur le commerce de Marseilleau moyen-âge,p.18-19.

(2) De Mas-Latrie,L.,Traité de paix et de commerce et documents divers,preface,p.X ,tome 1

لقد أدت هذه الضحالة للمصادر بالعديد من المؤرخين إلى النظر بعين الريبة إلى أي تواجد للتجار المسلمين بمدينة مرسيليا قبل العهد العثماني ومن هؤلاء الديبلوماسي والمؤرخ "لويس دوماس لاتري"(Louis de Mas-Latrie) الذي اعترف اعترافا جليا بالنقص الفادح في المصادر التي قد تدل على تواجد التجار المسلمين في مدينة مرسيليا ابان تلك الفترة[1].

نحن إذن أمام معضلة يصعب فكها حيث أن هنا كالعديد من القرائن حول وجود فعلي للتجار المسلمين بمدينة مرسيليا إلا أن الأدلة المستندة إلى الوثائق تبقى تعوز الباحث في هذا المجال.

أمام هذا الأفق الضيق لما يمكن أن تفيدنا به المصادر التي عادةً ما يعول عليها المؤرخ وخصوصا الوثائق المكتوبة، لا يسعنا إلا أن نتوجه إلى الفكر و الروية لأجل استنطاق الأحداث والوقائع ومحاولة تفسيرها بالاستناد إلى الأحوال العامة للحقبة المراد دراستها.

الخاتمة:

فيما يخص بحثنا هذا فإن الحالة العامة للفترة الممتدة من القرن الثالث عشر حتى القرن الخامس عشر الميلاديين كانت تتميز بالفرق الشاسع بين مستوى الرقي الحضاري والإزهار الاقتصادي الذي كان يعرفه العالم الإسلامي آنذاك، وبين حالة التخلف الحضاري والكساد الاقتصادي الذي كانت تتخبط فيه أوروبا بما فيها جنوب فرنسا.

هذا التفاوت يجعلنا نجزم أن التجار الأوروبيين كانوا أكثر حضورا في الموانئ التجارية الإسلامية من أقرانهم المسلمين في الموانئ التجارية الأوروبية، لأنه من المعروف أن الذي له حاجة إلى سلعة ما هو الذي يذهب ويغامر للحصول عليها واقتنائها، أما الذي يملك السلعة فيقينه بأن هناك من هو في حاجة إليها سيسعى عاجلا أو آجلا للحصول عليها، وبما أن العالم الإسلامي كان خلال تلك الفترة سيد الطرق التجارية الكبرى وكان المنتج الأكبر أو على الأقل المورد الأكبر للعديد من السلع التي كان الأوروبيون في حاجة إليها، فإن التجار المسلمين لم يكونوا في حاجة للمغامرة وقطع المسافات وخوض المخاطر لكي يوصلوا سلعهم إلى الأوروبيين، لأن هؤلاء كانوا هم من يتجشم الصعاب ويركب الأهوال لأجل الحصول على المقتنيات الثمينة التي كانت تزخر بها الأسواق في العالم الإسلامي مثل التوابل والملح والمصنوعات الخزفية الرائعة

(1) De Mas-Latrie,L.,Traité de paix et de commerce et documents divers, introduction générale,p.316

والجلدية والنسيجية الفاخرة، وغيرها من السلع الأخرى التي كانت أوروبا تفتقر إليها كالجواهر والمصوغات وحتى الأدوات المستعملة في العديد من الحرف والصناعات.

هذه الحالة تنطبق تماما على التجارة بين مرسيليا والعالم الإسلامي بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر الميلاديين، وهذا ما يفسر قلة تواجد التجار المسلمين في ميناء وأسواق مدينة مرسيليا مقارنة بكثرة تواجد تجار تلك المدينة بالموانئ والأسواق الإسلامية.

إن دراسة الوجود الإسلامي في مدينة مرسيليا رغم الصعوبات التي يجدها الباحث أثناء الخوض فيه، تذللها أدوات مساعدة قد تمت الإشارة إليها في معرض هذا البحث والتي يمكن اعتبارها إثباتات أخرى، تدل على أن هذا الوجود لم يكن ظرفيا، ولم يكن مرتبطا بالحملات العسكرية فقط التي خاضها المسلمون في جنوب فرنسا خلال القرون: الثامن والتاسع والعاشر الميلادية، بل كان ذلك الوجود حقيقة أملتها المصالح الاقتصادية التي تجسدت في المبادلات التجارية التي دامت حتى أثناء الفترات تميزا بالصراعات العسكرية.

يبقى المجال مفتوح من أجل البحث عن أدلة مادية تؤكد هذا الحضور للعنصر البشري الإسلامي في جنوب فرنسا، بكل ما يمثله ذلك الحضور من مساهمة في عملية إيصال المعارف والتقنيات إلى تلك البلاد، مما ساهم في نهضتها ونهضة كل بلدان أوروبا الغربية.

قائمة المصادر و المراجع:

1. Archives municipales de Marseille,cote : AA 149(9/4/1472).

2. Baratier E. et Raynaud F.(1951),Histoire du commerce de Marseille,tome 2 :de 1291 à 1480, Plon. Paris.

3. Baratier E.(1959) « Influence de la politique angevine sur le déclin commercial de Marseille,aux XIIIe et XIVe siècles » ;in Actas del VI Congréo de Aragon (sardaigne,8-14 Décembre 1957)Madrid,p.679-693.

4. Bargès J.J.L..(1889),Inscriptions arabes qui se voyaient autrefois dans la ville de Marseille,Paris,Goupy et Jourdan.

5. Blancard L.(dir.)(1884-1885),Documents inédits sur le commerce de Marseille au moyen-âge,Marseille,Baratier-Feissat.

6. Busquet R. Pernoud R.(1949),Barcelone et le grand commerce d'orient au moyen-âge jusqu'en 1291,Paris .Plon.

7. Coulon D.(2004),Barcelone et le grand commerce d'orient au moyen-age .Un siècle de relations avec l'Egypte et la Syrie-Palestine.,(ca.1330-ca. 1430),Madrid-Barcelone, Casa de Velazquez-Institut Europeu de la Mediterrania.

8. Dakhlia J.,Vincent B.(dir.)(2011),Les Musulmans dans l'histoire de l'europe,t.1 :Une intégration invisible ;Paris, Albin-Michel.

9. Depping G.B.(1830),Histoire du commerce entre le levant et l'Europe depuis les croisades jusqu'à la fondation des colonies de l'Amérique ,Paris, Imprimerie royale.

10. Gleize Yves,(1992),Trois inhumations Musulmanes du haut moyen-âge à Nîmes ,Analyse pluridisciplinaires archéo-anthropologiques ,1992,p79-87.

11. Joncheray J.-P,Senac Ph.(1995) ,« Une nouvelle épave sarrasine du haut moyen-âge »Archéologie islamique , 5, p.25-34.

12. -Jullianny J.(1842),Essaie sur le commerce de Marseille , t 1 :Aperçue historique , institutions locales ,Marseille ,J.Barille.

13. Loeb I.(1888), « Les négociants juifs à Marseille au milieu du XIII e siècle,Revue des études juives ,16,p.73-83.

14. Malausséna P.-L.(1968), « Promissio redemptionis : le rachat des captifs chrétiens en pays Musulmans à la fin du XIV e siècle » ,Annales du midi,80,p255-281.

15. Mery L.,Guindon F.(dir.)(1941),Histoire analytique et chronologiques des actes et des délibérations du corps et du conseil de le municipalité de Marseille,Marseille, Baratier-Feissat.

16. Pernoud R.(dir.)(1949),Les statuts municipaux de Marseille,Paris , A.Picard.

17. Picard Ch.(2009) « De l'usage de l'écrit documentaire en Islam » ,in L'autorité del'écrit au moyen-age(orient-occident),actes du XXXIX éme congrès de la société des historiens médiévistes de l'enseignement supérieur(le Caire ,30 avril-05 mars 2008),Paris ,Publications de la Sorbonne,p.127-141.

18. Sylvestre de Sacy A.I.(éd. Et trad.)(1831) ,«Mémoire sur le traité fait entre le roi de Tunis et Philippe le Hardi en 1270,pour l'évacuation des

territoires de Tunis par l'armée des croisés »in histoire et mémoires de l'institut royale de France, t 9, Académie des inscriptions et belles lettres, p.448-477.

19. Valérien D.(1999)« Ifriqiyan Muslim merchants in the Mediterranean at the end of the middle age» ,Mediterranean Historical Review,14/2 , p.47-66

20. Valérian D.(2001), « Les archives de Marseille ,source de l'histoire du Maghreb médiéval :le cas du port de Bougie (XIII e – XV e siècle) »,Annales du midi,233,p5-26.

21. Valérian D.(2009) ,« Le recours à l'écrit dans les pratiques marchandes en contexte interculturel :Les contrats de commerce entre chrétiens et musulmans en méditerranée » ,in L'autorité del'écrit au moyen-âge(orient-occident),actes du XXXIX éme congrès de la société des historiens médiévistes de l'enseignement supérieur(le Caire ,30 avril-05 mars 2008),Paris, Publications de la Sorbonne, p.59-72.